الإدمان على المخدرات بين التحليل النفسي و الاجتماعي

د.أبراهيمي أم السعود
جامعة الجلفة

تمهيد

بالرغم من الجهود المكثفة و المتواصلة التي تقوم بها مؤسسات المجتمع و خاصة تلك المعنية مباشرة بمكافحة ظاهرة الإدمان على المخدرات، هذه التي اشتد قوامها و استفحل فعلها بين شرائح المجتمع باختلاف فئاته الجنسية و العمرية، إلا أن النتائج المنتظرة ضئيلة جدا حيث أن الظاهرة، كما يشير الواقع المعاش و الأرقام المروعة التي تعرضها يوميا وسائل الإعلام الوطنية، تواصل مسيرتها و ترفع من وتيرتها و معها تزيد رقعة المدمنين اتساعا عبر كل أرجاء الوطن. فتلك المعطيات كما يصفها المختصون، ما هي إلا "الشجرة التي تخفي الغابة " لأن الإحصاء الدقيق للظاهرة أصبح عسيرا إن لم نقول مستحيلا نظرا لصعوبة الوصول الى كل المدمنين و في هذه الحالة يصبح مبدأ "الوقاية خير من العلاج" سيد الموقف مما يجعل المجتمع الجزائري أمام تحديات راهنة تتمثل في وضع الوقاية في قلب الجهود بدلا من العقاب الذي أثبت عجزه على استئصال الظاهرة أو العلاج الذي أصبح المختصون ينظرون إليه باعتباره عملية معقدة و عشوائية و بطيئة و لا

تضمن معاودة الاستهلاك مجددا.

و من هذا المنطلق تصبح الوقاية خيارا استراتيجيا لكن كما يقر "تين بيني" (Binet) : " ينبغي قبل أي مبادرة وقائية، فهم الظاهرة فهما صحيحا و تحليلها انطلاقا من عدة مقاربات مما يمكننا من التعرف على الأسباب والعوامل الثقيلة التي تقف وراءها .[1]

و عليه سنحاول التطرق الى الأسباب النفسية و الاجتماعية لتعاطي المخدرات من خلال المحاور التالية :

1- بعض المفاهيم المتعلقة بالمخدرات و بالإدمان على المخدرات

2- الوضع الراهن لظاهرة الإدمان على المخدرات في الجزائر : واقع و أرقام .

3- ظاهرة الإدمان على المخدرات في ضوء المقاربات التحليلية النفسية و الاجتماعية (الوظيفية ،التفاعلية ، الفر دانية)

1- مفهوم المخدرات Les psychotropes

1-1- المخدرات كما يعرفها معجم "لاروس" (Le Petit Larousse) هي مادة يمكنها تغيير حالة الوعي.

[1] Tine.B, **Etude sociologique d'une forme de déviance au Sénégal**, éd. Publibook, 2008, p 53.

1-2- يشير "جيرو" (C.Giroux)[1] الى أن المخدرات مادة تؤثر على نفسية البشر حيث أنها تؤدي تغير الإدراك (اليقظة) ، المشاعر (حزن،فرح) ، التفكير (تركيز،ذاكرة،حكم) ، السير الحس حركي (المشي،الجري،فقدان التوازن .....الخ)

هذه المواد قد تكون مشروعة (شاي، قهوة، مشروبات أخرى) أو غير مشروعة (مخدرات بكل أنواعها) غير أنها تحتوي جميعها مفعولا ساما بدرجات متفاوتة و تؤدي كلها الى الإدمان.

1-3- تعرف "المنظمة العالمية للصحة " (OMS)، المخدرات بوصفها تلك المادة التي عندما تصل داخل الجهاز العضوي تستطيع تغيير حالة توازنه أو التأثير على إحدى وظائفه ويتعلق الأمر بمادة يمكن أن تغير النشاط العقلي للمستهلك و إحساسه و سلوكه. فالمخدرات(psychotropes) بالمنظور الواسع يمكن استعمالها لغايات علاجية أو غير علاجية لقدرة تأثيرها على الجهاز العصبي[2].

2- مفهوم الإدمان (La toxicomanie)

2-1- الإدمان عن المخدرات كما تعرفه "المنظمة العالمية للصحة " (OMS) هو حالة نفسية و في بعض الأحيان بدنية كذلك ناتجة عن

[1] Giroux .C, **Aspects physiologiques et pharmacologiques des psychotropes**, Fayard, Paris , p 52.
[2] Fr.Wikipedia.Org/Wiki/Toxicomanie

التفاعل بين جهاز عضوي حي و مخدرات ، تتميز بتغيير السلوك و بردود فعل تتضمن دائما، اندفاع نحو تناول المادة بصفة مستمرة أو دورية، بهدف الحصول على نفس الآثار النفسية و أحيانا لتفادي القلق الذي يسببه الحرمان.

2-2- يعرفه "م.شامي" (M.Chami) كما يلي: "هو استساغة غير عادية و ممتدة تظهر على بعض الفاعلين تجاه مواد سامة أو مخدرات، تعرفوا على آثارها المسكنة أو البهيجة أو المنشطة، بالصدفة أو بصفة إرادية، استساغة سرعان ما تصبح عادة مستبدة تدفع المستهلك لا محالة، الى زيادة الجرعات بصفة تدريجية ". [1]

3- مراحل تطور الإدمان على المخدرات

تتدرج حالة الإدمان على المخدرات من درجة الى درجة أكثر خطورة وذلك عبر عدة مراحل يرتبها "ب.تين"كما يلي:[2]

3- 1- الاستهلاك العرضي (consommation occasionnelle)

تتميز هذه المرحلة بتناول المخدرات بصفة عرضية وقد يرجع ذلك الى الفضول (تلبية حاجة الخبرة الشخصية) أو الضغوط الممارسة من قبل جماعة الرفاق التي تدفع الفرد الى الامتثال الى الآخرين من أجل

[1]Chami. M, **Toxicomanie et interventions sociales**, ESF, Paris, 1987, p 76.
[2] Tine.B, Op, cit, p 54.

الاندماج داخل الزمرة لأن المراهق في هذه المرحلة يكون شديد الحساسية تجاه حكم الرفاق ونظرتهم إليه .

3-2- التعود التدريجي (Accoutumance)

عندما يكون استهلاك المخدرات بصفة منتظمة يصبح المدمن في حاجة الى المزيد من الجرعات من أجل الشعور بنفس الآثار، الشيء الذي يترجم تقبل (Tolérance) المادة من طرف الجسم ، هذه الحالة كان في السابق ، ينظر إليها باعتبارها ظاهرة فسيولوجية، نتيجة تكيف الجهاز العضوي مع مادة مستهلكة بانتظام، غير أن دراسات حديثة أكدت أنها تعبر عن واقع نفسي صيدلاني مرتبط بآثار المواد على نفسية الشخص .

3-3- الإدمان الحاد(Assuétude)

الإدمان الحاد هو الاستمرار في تعاطي المخدرات و تكرار الفعل بدون انقطاع و بدون توقف.هذا النوع من الإدمان يلفت الشخص عن كل مراكز اهتماماته الأخرى بمعنى آخر، تصبح المخدرات أساس وجوده و مركز حياته ولا يعيش إلا من أجلها.

3-4- الجرعات الزائدة (Overdose):عبارة عن اختناق أو ضيق في التنفس يصيب المدمن عندما يستهلك كمية معينة من المخدرات في مرة واحدة و قد تسبب الوفاة في حالة تأخر الإسعاف.

4- الوضع الراهن لظاهرة الإدمان في الجزائر

4-1- الظاهرة بالأرقام

تبين الدراسات التي قام بها "**الديوان الوطني لمكافحة المخدرات والإدمان عن المخدرات** " أن الاتجار بهذه المادة الخطيرة عرف تطورا مستمرا داخل القطر الجزائري في السنوات الأخيرة حيث سجل الديوان الوطني بداية 2014، ارتفاع الكميات المحتجزة من ريزين القنب (résine de cannabis) بنسبة 98%(أكثر من 211 طن) مقارنة بسنة 2013والكوكايين(cocaïne) بنسبة 82,5% (3,79 كغ) و الهيروين (héroïne) بنسبة 12,05 % (0,86 كغ) كما تم حجز 500 غ من العفيون(opium) و 1,17 مليون من الحبوب المهلوسة (Psychotropes)بمختلف أنواعها هذا إضافة الى اكتشاف و استئصال 4831 نبتة من القنب و 2721 نبتة من العفيون و في نفس السنة قامت مجموعة المصالح المشتغلة بمكافحة الظاهرة، بمعالجة 7473 قضية تتعلق بالترويج و المتاجرة و التهريب لمواد ريزين القنب و الكوكايين و الهروين على الصعيد الوطني و الدولي و تم في خضم هذه القضايا استدعاء 10574 شخصا من المتورطين منهم 123 أجنبيا في حين وصل عدد المتورطين الذين تم استدعاؤهم، 9645 من بينهم 56

أجنبيا [1].

هذا و يشير الديوان الوطني الى أن أكبر كمية من الكيف المعالج، يتم احتجازها على مستوى الحدود الغربية بين مدينتي تلمسان و بشار .أما بالنسبة لعدد المدمنين فقد أحصى الديوان 300.000 مدمنا و أزيد من 1000.000 مستهلكا عرضيا، كما تم إحصاء 13.743 شخصا أدخلوا الى مراكز إزالة السموم و المراكز الوسيطة لعلاج المدمنين أي ارتفاع ما يقارب 14% نسبة لسنة 2010، 90% من هؤلاء المرضى توجهوا الى مختلف المراكز المتخصصة من أجل الفحص و الباقي من أجل الاستشفاء كما يشير الديوان الوطني أن 6% من الذين تم استقبالهم داخل هذه الهياكل هن إناث.[2]

4-2- الخارطة السوسيولوجية للمدمنين بالجزائر

يشير "م.خياطي" رئيس **الهيئة الوطنية لترقية الصحة و تطوير البحث** أن أكبر نسبة من مستهلكي المخدرات توجد بين الشباب المتمدرسين و ترتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة الموقع الجغرافي للثانوية أو المتوسطة. لكن هذه الآفة لا تتوقف عند حد الشباب فقط بل نجدها داخل كل شرائح المجتمع و في كل الأوساط بسبب توفر العوامل المساعدة على انتشارها، غير أن الشباب المنحدر من الأسر المعوزة هم أكثر تعرضا و أكثر

[1] ONDT, **Le phénomène de la drogue en Algérie, un constat amer,** .4Septembre, 201

[2] Le temps d'Algérie , M.C, publié le 30/03/2014.

استعدادا لتعاطي المخدرات. كما يضيف أيضا أن الظاهرة لا تمس الذكور فحسب بل الإناث كذلك متوقعا تسجيل ارتفاعا محسوسا نظرا لانخفاض سعر المخدرات من جهة وتزايد عدد البطالين من جهة أخرى[1] و في نفس السياق يذكر "ع.عبيدات" رئيس **الفيدرالية الوطنية لجمعيات التكفل بالشباب**، أن هؤلاء الشباب هم في أغلب الأحيان، في قطيعة مع النظام الاجتماعي و لا يشملهم أي تدخل تربوي. فهم ضحية استقالة الأولياء بسبب الطلاق، التسرب المدرسي، غياب القيم، الفراغ و كذلك انعدام سياسة التكفل بالشباب مما يدفعهم الى الشارع الذي يوفر لهم فضاء مناسبا للاتصالات السلبية و الآفات الاجتماعية التي تضرب لهم موعدا و تفتح لهم الطريق واسعا لكل أنواع الانحرافات. [2]

4-3- المدمن بين الردع و العلاج

إن المخطط الوطني الخماسي الاستراتيجي لمكافحة ظاهرة الإدمان (2011 / 2015) الذي شرع في تطبيقه منذ سنتين، أعطى بعض النتائج الايجابية فيما يخص الردع إلا أنه يبقى ضعيفا فيما يتعلق بالتكفل بالشباب داخل مراكز إزالة السموم و الفطام. فالأنظمة القضائية و الاجتماعية كما يشير " خياطي" بمناسبة اليوم الوطني حول **ظاهرة**

[1] Khiati .M , **La Forem tire la sonnette d'alarme**, El Moudjahid le 04/01/2014.
[2] Abidat. A, **Journée de sensibilisation organisée par la DGSN**, 2014 .

الإدمان على المخدرات، ينبغي أن تعتمد الحوار بين المتدخلين و الفريق الطبي و القضاة، ذلك أن الهدف الأساسي، حسب رأيه، يكمن في توفير شروط الاندماج خلال عملية التكفل قبل كل شيء، ثم اللجوء إلي العقاب كحل أخير. فالمدمن كما يقر الأخصائيون ،ضحية و ليس مجرما و بالتالي يجب معاملته كمريض يستحق العلا ج[1] .

و في نفس الاتجاه ،قامت وزارة الصحة و السكان و إصلاح المستشفيات، باستحداث مركزين لإزالة السموم في مدينتي البليدة و وهران إضافة الى 13 مركزا في طور الإنجاز و 180 مركزا للتوجيه و الإصغاء و 53 مركزا للعلاج يشتغلون على مستوى الوطن .[2]

5- ظاهرة الإدمان في ضوء التحليل النفسي و السوسيولوجي

لقد شدد علماء النفس و الاجتماع، الاهتمام بموضوع المخدرات نظرا لما تحتويه هذه المادة من خطورة على المستهلك نفسه و على المجتمع و استقراره و قد قامت دراسات كثيرة مست كل جوانب الظاهرة تهدف بالأساس الى تحليل المعطيات النفسية و الاجتماعية و تفسيرها كل وفق اتجاهه و مذهبه، وان كانت المناهج و المقاربات مختلفة إلا أن الأهداف واحدة، تتمثل في الوصول الى معرفة العوامل التي تقف وراء ظاهرة الإدمان، معرفة علمية .

---

[1] Ibid.

[2] Oukali, **journée nationale sur la toxicomanie**, El Moudjahid le 01/07/2014.

5-1 المقاربة النفسية

من بين علماء النفس الذين كتبوا الكثير حول المخدرات و المدمنين يمكن الإشارة الى "أوليفنسفين" (Olievenstein.C) المعروف بطبيب المدمنين و الذي قضى خمسة و ثلاثين سنة من عمره في مستشفى أنشأه في فرنسا يخص علاج ما يسميهم "بضحايا المجتمع".و قد تعلق كثيرا بهذه الفئة حيث كرس كل جهوده من أجلها عندما كان على قيد الحياة وترك كل أمواله بعد وفاته خدمة لها. و من أفكاره الرائدة في هذا الميدان تجدر الإشارة الى المعادلة **(مادة / شخصية / لحظة سوسيوثقافية)** التي قام بتطويرها محاولا من خلالها، تفسير حالة الإدمان من جهة وتعريف الأسباب النفسية من جهة أخرى، هذه العلاقة ثلاثية الأبعاد هي التي ينبغي دراستها حسب رأيه، إذا ما أردنا حقيقة، التقرب من المدمن و العمل على مساعدته على الخروج من حالته و تتمثل هذه الأبعاد في: [1]

5-1-1 المادة (Lamatière)

أ- مرحلة شهر العسل(Lune de miel) : يشير "أوليفنستين" في بداية الأمر عند تصنيفه للمواد المخدرة الى "الهيروين " كمادة بهيجة

[1] Olievenstein.C, **Il n'y pas de drogués heureux**, Ed Le livre de poche, Paris, 1998, p 48

(Euphorisante) تمكن من الشعور بالسعادة و المتعة و يسمي هذه المرحلة شهر العسل و تنقسم الى أربعة أطوار :

* **النور الساطع** (Flash) عبارة عن لحظة أساسية تصقل الى الأبد في ذاكرة المستهلك .

***الطيران**(Planète) و هنا يشعر المستهلك بالتحليق داخل قوقعة لكن مع إحساس قليل، بالقلق و بآلام الحياة و الخوف من الموت ...الخ.

* **النزول الى العالم الواقعي** la descente dans le monde (réel) لكن مع الشعور بالاكتئاب و الحزن مما يجعل الأشخاص الأكثر ضعفا يميلون الى تكرار الرحلة و هنا يتم غلق الفخ حول المدمن.

***السقوط في الجحيم** (la descente en enfer) يمكن للمدمن الحصول على السعادة عند استهلاك نفس الكميات المخدرة لكن سرعان ما تتراجع حالة السعادة تدريجيا حتى تزول مما يدفع المدمن الى مضاعفة الجرعات من أجل الوصول بعيدا من خلال الرحلة و يسمي "أوليفنستين" هذه المرحلة ،السقوط في الجحيم والإدمان و النقص (le manque). [1]

5-1-2- الشخصية (La personnalité)

تشكل الشخصية العنصر الثاني للمعادلة حيث يقول "أوليفنستين" :إننا

[1] Ibid. p 49

متأكدون منذ زمن بعيد، أن هناك أناس أكثر عرضة للإدمان من غيرهم. فالطفل الذهاني لا يمكنه كسر حالة الانصهار مع إلام و عند ما ينظر الى نفسه علي "مرآة لاكان" الرمزية (Miroir de Lacan) بحثا عن " الأنا " فسوف لن يجده لأن المرآة تصدعت مما يؤدي به الى مواقف توحيدية و سيبقى كما يضيف الدكتور، يبحث مدى الحياة على شيء يحاول من خلاله سد الفراغ الذي يشعر به. و إذا صادف المادة السامة في طريقه، سوف يكتشف هوية من خلال المتعة التي يفقدها في اللحظة نفسها. تلك هي العملية الأساسية التي تنمي الاستعداد الى الإدمان إضافة الى علاقة المدمن بالقانون و الأسرة و المجتمع.[1]

5-1-3-اللحظة السوسيوثقافية (Le moment socioculturel)

هذا العنصر لا يختلف حسبه، عن ما هو معروف في هذا الميدان مثل عدم التلاؤم مع النظام الأسري و النظام المدرسي، صراع الأجيال، غياب الحوار والوتيرة الغير العادية لتطور الظواهر و الأهم من ذلك كما يقول، هو أننا أصبحنا لا نعرف نتكلم بالحنان، بالحب، بالشعر و بالعاطفة وأننا بكل أسف دائما غائبون عندما يحتاج الآخر وجودنا وهذا في رأيه قد يكون السبب الرئيسي المؤدي الى الإدمان و قبل ذلك الى العزلة.[2]

[1] Ibid. p 50
[2] Olievenstein.C, Op cit, p 52.

و بصفة عامة يقر "أوليفنستين" أن ظاهرة الإدمان هي نتيجة لقاء بين مادة و شخصية و لحظة :

أ- المخدرات موجودة قبل المدمن و هي مادة جامدة موجودة في كل مكان و زمان.

ب- يختلف موقف البشر أمام هذه المادة باختلاف الفضاء والأيديولوجية و المكان و اللحظة السوسيوثقافية

3- في نفس اللحظة السوسيوثقافية يختلف موقف الأفراد باختلاف درجة الحساسية الشخصية و التي بدورها ترتبط بالتاريخ الشخصي للفاعل أمام النقص(le manque)

4- كل نقص يشعر به البشر يرجع الى نقص قديم هذا الذي يحدد درجة الإدمان [1]

6- التحليل السوسيولوجي

6-1- المقاربة الوظيفية

يصنف الوظيفيون الإدمان على المخدرات في خانة الانحراف باعتباره ظاهرة تزعزع استقرار المجتمع و تخل بتوازنه حيث تؤدي بالأفراد الى الجريمة تجاه أنفسهم (الانتحار) و لتفسير هذه الظاهرة، طور "دوركهايم" (Durkheim) مفهوم الأنوميا الذي يعبر عن غياب (أو ارتياب)

[1] Ibid. p 58.

المعايير الاجتماعية و عدم احترامها، بوعي أو بدون وعي، من قبل أفراد أو جماعات في ظل انعدام الرقابة الاجتماعية[1]، فالأنوميا على حد قوله، هي نتيجة اصطدام أو تداخل مضطرب بين التضامن العشائري(الآلي) و التضامن الترابطي(العضوي)الذي هو أسرع تطورا، مما يؤدي الى آثار واضحة تظهر على الأفراد في بعض المستويات من المجتمع تتمثل في فقدان المعالم بين ما هو اجتماعي و ما هو خلقي[2].

و تؤدي الأنوميا الى حالة مرضية يعبر عنها "دوركهايم" بمفهوم "الباثولوجيا الاجتماعية" التي تدخل الأفراد في وضع شديد الهشاشة.

وعليه فانه كلما انتشرت حالة الأنوميا كلما اتسعت رقعة الباثولوجيا و ارتفعت بالموازاة نسبة الانتحار، و يضيف أن الأنوميا تنتشر بصفة خاصة في الأوضاع التي تعرف تراجع المعايير القديمة حيث أن الأفراد الذين يفقدون هذه المعايير، هم نفسهم الذين يرفضون الاندماج في المعايير الجديدة .[3]

أما "ميرتون" (Merton)، فانه بالرغم من اعترافه بأن الأنوميا مفهوما مناسبا جدا لتفسير ظاهرة الانحراف، إلا أنه يفضل تعريف مفهوم الأنوميا بصراع المعايير و ليس غياب المعايير لأن المعايير

---

[1] Tremblay.J.M, **E. Durkheim, Le suicide, étude sociologique**, UQAC, 2002, p 43.

[2] Ibid. P 44.

[3] Boutefnouchet.M, **Introduction à la sociologie**, OPU, Alger, 2004, p 195.

الاجتماعية موجودة حسبه في كل الحالات إلا أنها ليست نفسها عند المنحرف و الغير المنحرف . فما ينبغي أن نأخذه بعين الاعتبار، هو أن للمنحرف كذلك معايير خاصة به يدافع عنها.[1] فالأنوميا بمنظور "ميرتون"، هي نتيجة تناقض بين نمطين من المعايير موجودين في ذات الوقت داخل البنية الاجتماعية : **المعايير المؤسسية** normes) (institutionnellesتلك التي يتم تعليمها داخل المؤسسات التربوية و **المعايير الثقافية**(normes culturelles) ، تلك التي يتم بثها في الوسط الاجتماعي .و إذا كانت الأولى تعلم القيم الشرفية، فالثانية تكرس القيم المعترف بها و الممارسة فعليا داخل الوسط الاجتماعي و تتمثل هذه القيم في نظره، في النجاح المادي السريع والرفيع. ففي حين تقوم المؤسسات التربوية بتعليم قيم الصدق و النزاهة، يصفق الوسط الاجتماعي و يثمن قيم الخداع و التضليل التي تمكن من الكسب الوفير[2] .

و تشير الباحثة "أ.براهيم الرحماني" في هذا الصدد أن الأنوميا تحدث عندما يعجز الأفراد عن الوصول بالوسائل المعيارية، الى الأهداف المحددة ثقافيا، ففي تلك الوضعية، يلجئون الى الوسائل المنحرفة بالاتجاه الى إطار مرجعي ثاني و عليه فانه يدخل الفرد

[1] Saint Martin. A, **La sociologie de R.K. Merton**, la découverte, Paris, 2013, p 81.
[2] OP cit,p 96.

مباشرة في الانحراف و ينشط وفق خمس إمكانيات كل واحدة منها تبعده أكثر من الأخرى عن المعايير الاجتماعية [1]:

أ- **الامتثال** وهو تبني الأهداف و الوسائل المحددة من قبل المجتمع حتى في حالة عدم جدوى هذه الأخيرة

ب – **الطقوسية** و تتمثل في تقليص الفرد من تطلعاته مع البقاء على مستوى احترامه للمعايير الاجتماعية ج – **الابتكار** و هو اكتشاف وسائل جديدة من أجل الحصول على الأهداف المسطرة

د – **التمرد** و هو رفض الأهداف و القيم مع محاولة استخلافها بأخرى .و هنا قد يؤدي التمرد عند ما يقترن بالابتكار، الى تشكيل جماعات منعزلة مثل عصابات الشباب التي تتميز بثقافات فرعية أكثر أو أقل استمرارا.

هـ- **التملص** وهو نوع من التكيف يؤدي بالفرد إلي التخلي عن الأهداف و وسائل تحقيقها .و يتمثل ذلك في التهميش الاجتماعي الذي يشمل المدمنين على المخدرات و المختلين عقليا.

وتصيف الباحثة أن الانحراف يختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية حيث أنه يأخذ شكل الابتكار بالنسبة للطبقات الثرية و شكل الانعزال و

[1] Brahim Errahmani.A, **L'Adolescence délinquante entre responsabilité et fatalité**, OPU, Alger, 2010, p104.

التمرد بالنسبة لتلك الفقيرة وذلك لان فرص النجاح ليست نفسها داخل هذه الطبقات. [1]

6-1-1-الاختلال الوظيفي

يجد الانحراف تفسيره لدى الوظيفيين فيما يعبرون عنه بمفهوم الاختلال الوظيفي داخل مؤسسات المجتمع. و لقد بينت الدراسات التي قامت بها جماعة شيكاغو(Chicago)، تأثير الوسط الاجتماعي على انحراف الشباب حيث تمت الإشارة بصفة خاصة، الى التنشئة الاجتماعية و طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة داخل الأسرة والمدرسة [2] حيث يتفق الوظيفيون على تعريف التنشئة الاجتماعية بوصفها العملية التدريجية التي يصبح من خلالها الرضيع البشري كائنا اجتماعيا متشبعا بقيم و معايير الجماعة و تصوراتها و اتجاهاتها و كيفية إدراكها للعالم حولها .و يؤكد الوظيفيون و على رأسهم ".بارسونس" (Parsons) على الدور التربوي للأسرة و المدرسة ، باعتبارهما نسقين فرعيين داخل النسق الاجتماعي الكلي(المجتمع)[3] .

فالنسق الاجتماعي في منظور "بارسونس" هو نسق التفاعلات الاجتماعية أي أن الاجتماعي (le social)بالنسبة له هو شبكة

---

[1] Ibid. p 104.
[2] Parsons.T, **Eléments pour une sociologie de l'action**, Plon, Paris, 1955, p 38.
[3] Ibid, p 39.

التفاعلات بين الأفراد و كل خلية اجتماعية تفاعلية تخضع لقيم معينة سواء خلقية أو دينية أو ثقافية أو سياسية...الخ .و حتى تكون هذه القيم إجرائية، ينبغي حسب رأيه، أن تأخذ بعدا رمزيا يظهر من خلال تصرفات الأفراد المتفاعلة و ليس في مجرد كلامهم. فالتفاعل حسبه، يقوم على ثنائية تتمثل من جهة في **المكانة** وهي عبارة عن سلوك محدد اجتماعيا ينبغي على الفرد أو المؤسسة احترامه ومن جهة أخرى **الدور** و هو السلوك المتوقع و الذي ينبغي تحقيقه من طرف الفرد أو المؤسسة. و يشير الى أن منح المكانة و توقع الدور يشكلان طرفي التفاعل :الأفراد(أو المؤسسات) المتفاعلة تقوم بدورها المتوقع حسب مكانتها المحددة اجتماعيا .و علية فان الأسرة و المدرسة في تفاعلهما من أجل الحفاظ على استقرار المجتمع و تفادي الأزمات التي هي في رأي "بارسونس"، نتيجة الانحرافات بكل أنواعها ينبغي أن تحقق أربع شروط و هي:[1]

أ-**التكيف** و هو توفير المستلزمات (مادية و بشرية) وفق الأهداف المسطرة داخل الأسرة و المدرسة

ب- **تحديد الأهداف** وهو أن تكون الأهداف المسطرة واضحة و مشتركة بين الأسرة و المدرسة

[1]Rocher. Guy, **T.Parsons et la socjologie américaine,** Université de Montréal, 1988, P 47.

ج- **التكامل** وهو التوافق و الانسجام بين القيم التي تكرسها الأسرة وتلك التي تبثها المدرسة

د- **الكمون** و هو تنمية الدافعية الكافية لدى الأفراد لأداء الأدوار المتوقعة حسب المكانة و الحفاظ على ثبات المعايير التي تتوافق مع ثقافة المجتمع . [1]

6-2-المقاربة التفاعلية الرمزية

ينظر التفاعليون مثلهم مثل الوظيفيين الى الإدمان بصفته شكل من أشكال الانحراف، غير أنهم يرجعون أسبابه الى معاني و رمزية التفاعل الاجتماعي بين الفرد والجماعات المحيطة به.و يشير أصحاب هذا الاتجاه الى مفهوم **الوصمة** للتعبير عن الاسم أو الصفة التي توصف بها الأشخاص المنحرفة أو المهمشة من قبل أولائك الغير منحرفين اجتماعيا. فالوصمة بهذا المعنى، تعبر عن تصنيف اجتماعي من خلال لغة الاتصال.

6-2-1-الوصمة (stigmatisation)

إن مقاربة موضوع الانحراف بصفة عامة و الإدمان بصفة خاصة ،على ضوء مفهوم الوصمة ،هي مقاربة برغماتية تنتقل من موقف نظري مطلق الى موقف نسبي في تفسير الاجتماعي أي أن الفرد ليس حالة محددة

[1] Ibid. p 49.

نهائيا بل نتيجة لنظرة الآخرين إليه. [1]

و يشير "بيكر" (H.Becker) ، أبرز المنظرين في هذا الاتجاه أن الانحراف ليس النتيجة الموضوعية للاختلال الوظيفي كما يذهب إليه الوظيفيون لأن المنحرف كما يؤكد، ليس ذلك الذي يخترق المعايير ، لأننا نفعل ذلك كلنا، بل هو ذلك الشخص الذي تنجح الجماعة في إلصاق وصمة على جبينه. فبعض الجماعات كما يضيف، تمكنت من إضفاء الشرعية على قيمها بينما فشلت الأخرى في إخفاء انتهاكها للمعايير السائدة و ذلك ما يؤدي بالأفراد الى إدراك ذواتهم بالصورة التي يرسمها عنهم المجتمع، الشيء الذي يقلص من فرص الرجوع و العودة الى سلوك يتفق مع المعايير الاجتماعية.و هذا ما تؤكده صعوبة إعادة إدماج المنحرفين والمسجونين .[2]

فالوصمة حسب "بيكر" (Becker) تدفع بالمنحرف في نهاية المطاف، الى مرحلة ثانوية تتمثل في الانخراط بصفة نهائية داخل مجموعة منظمة تحكمها قواعد خاصة و هنا يدخل المدمن في دوامة يصبح فيها كل فعل يستدعي رد فعل اجتماعي جديد مما يبقي المدمن على إدمانه مدى الحياة. وعليه فان الانحراف حسب هذه الفرضية، سلوك مرتبط بنظرة الآخرين الى المنحرف و قد يتغير هذا السلوك إذا تغيرت نظرة الآخرين

[1] Becker.H, **Etudes de sociologie de la déviance**, Métailié, Paris, 1985 p 68.
[2]Ibid. p69.

إليه. فالانحراف حسب قوله، ليس صفة تنطبق على سلوك المنحرف بل **نتيجة** لتطبيق القواعد الاجتماعية و معاقبة كل من ينحرف عنها[1].

6-2-2-التصنيف (catégorisation)

في نفس الاتجاه، يرى "قوفمان" (E.Goffman) أحد رواد مذهب التفاعلية الرمزية، أن تصنيف الانحراف يتم من خلال التفاعل الاجتماعي لكنه يقر عكس "بيكر"(Becker) ، أن كل فرد يقيم أفعال غيره باعتبارها انتهاكا لمعايير هويته الخاصة، فالانحراف يبنى من خلال خبرات بشرية دقيقة مطبوعة بوصمات حقيقية وهذه الوصمات هي دليل واضح على وجود مشاكل في تاريخ الفرد : إعاقة بدنية(مرض مزمن أو عضال) أو عائق قانوني(الدخول الى السجن) أو عائق اجتماعي(انتماء الى جماعات مهمشة) هذه الوصمات تشير الى **تدني القيمة** التي تقصي الفرد من القبول الاجتماعي التام. و نظرة سلبية مثل هذه تجعل حامل العاهة في حالة استعداد للانحراف بصفة أسرع و أكثر من غيره.[2]

تكمن أهمية هذه المقاربة في كونها تنظر الى الانحراف بمختلف أنواعه كظاهرة موجودة و دائمة ، ترافق الحياة الاجتماعية التي تجعل كل فرد يبحث على الاختفاء أمام الآخر لتفادي الوصمة وبالتالي التمكن من التحكم الاستراتيجي في الصورة التي يرسمها الآخرون حوله.

---

[1] Becker.H, Op cit p70.

[2] Goffman .E , **Stigmate ,les usages sociaux des handicaps** , Ed Minuit ,Paris , 1975 , p 56.

6-3-المقاربة الفردانية

بينما تميز العالم الحديث بالوضعية و التقدم و مشروع المجتمع المستقبلي الذي حرك الجماهير، جاء عالم ما بعد الحداثة، ليعلن عن نهاية النماذج التقليدية المحافظة على الاندماج وعودة الفاعل الاجتماعي ونمو الفردانية المنتصرة. و يحذر المحللون الفردانيون بالرغم من تأييدهم لهذا الاتجاه من الآثار السلبية لهذه المرحلة والطرق المسدودة التي سوف تفتحها أمام المجتمعات والتي قد يترتب عنها في كثير من الأحيان، تفتيت الهوية و الحالات النفسية بفعل استقلالية الفرد وحريته في التصرف.

6-3-1- تفتيت الهوية

من أبرز الذين تطرقوا الى المشاكل الاجتماعية التي أفرزتها مرحلة ما بعد الحداثة تجدر الإشارة الى "اهرانبارغ" (A.Ehrenberg) الذي يقر" أن الهوية الاجتماعية المرتبطة عادة بالطبقة الاجتماعية و الأسرة الأصلية الثابتة مدى الحياة، أصبحت اليوم مرتبطة بالشهادة المدرسية و بالدخل المادي، الأمر الذي تسبب في تقسيمها (الهوية) الى أدوار جزئية مختلفة، مما أدى الى ارتفاع خطر التشتت نظرا لصعوبة القيام بها كلها و لعل أفضل مثال على ذلك كما يشير الباحث، تغير وضع المرأة في العقود الأخيرة وتعدد أدوارها الاجتماعية بفعل اقتحامها عالم الشغل مع

البقاء على أدوارها التقليدية داخل الأسرة " .[1]

و قد بينت كذلك الدراسات التي قام بها "اهرانبارغ" أسبابا لا تقل أهمية عن سابقتها بل هي أساسية حسب نظره، في تفاقم المشاكل الاجتماعية و هنا يشير إلي التنشئة الاجتماعية وتغير القواعد و القيم في العالم (مؤسسات ، مدرسة ، أسرة) بحيث أنها بعد ما كانت تقوم على أساس الطاعة و الانضباط و التماثل للأخلاق، أصبحت اليوم تقوم على المرونة و التغير و رد الفعل السريع .

و عليه فان الأزمة التي أصبح يتخبط فيها الكائن البشري الحديث مردها ، كما يقول ،معاناته أمام مسؤولياته الجديدة في بناء حياته الخاصة حيث يجد الفرد نفسه في حالة ضعف وعجز على مواجهة هذه التحديات الراهنة مما يؤدى به لا محالة، الى الشعور "بالتعب من نفسه "(la fatigue d'être soi) خاصة بعد تفكيك براديغمات الاندماج التقليدية (الدين والتوجه السياسي الاشتراكي)،كل هذه العوامل تنشط متضافرة في اتجاه واحد و هو الوصول بالفرد الى الهشاشة و القلق وفقدان القوة و اليقين و ما ارتفاع عدد الأشخاص الذين تدهورت حياتهم المهنية و العائلية إلا دليلا قاطعا على ذلك، الأمر الذي دفع بالجزء الكبير منهم

[1]Ehrenberg. A , **La Fatigue d'être soi , Dépression et société** ,Poches Odile ,Paris , p 102.

الى الشارع و اللجوء بفعل الضغوط النفسية والاكتئاب الى تناول المهدئات و استهلاك المخدرات [1]

6-3-2-الحرية و الاستقلالية الذاتية

من بين النتائج التي استخلصها "دوتوكفيل" (A.De Tocqueville) من خلال دراساته حول الديمقراطية في أمريكا يمكننا الإشارة الى أن الفرد، بحصوله على أكثر حرية، يجد نفسه منعزلا أمام أفعاله و اختياراته في الحياة اليومية مما يجعله المسئول الوحيد على قراراته وما يترتب عن تصرفاته التي كانت في السابق تمليها عليه المؤسسات الاجتماعية. و يعود انعزال الفرد في نظره الى الحرية المطلقة التي يتمتع بها داخل المجتمع الحديث حيث تصبح المسئولية عبئا ثقيلا يصعب تحمله.[2]

و يذهب" أ.ميتاس" (A.Métais) في نفس السياق عند قوله أن العملية التدريجية للفردانية تؤدي بالفرد الى الاستقلالية و منه الى الانفصال شيئا فشيء عن المؤسسات التقليدية (الأسرة ،الدين، العادات ،التقاليد) التي كانت تحدد و تقنن السلوك و الأهداف و منه نمط الحياة[3]. و يرى "ب.تين "(B.Tine) من جانبه أن حرية الأفراد واستقلاليتهم الذاتية، تؤدي، في غياب الأطر المرجعية، الى ضعف القيم الاجتماعية الذي بدوره يؤدي الى عدم الاتصال و التواصل بين الناس و بالتالي الى

[1] Op cit ,p 103
[2] De Tocqueville.A ,**De la démocratie** , GF Flammarion , Paris ,1989 ,p 201
[3] De Metais.A ,**Sociologos** ,INSA LYON . Fr/PPH individualisme.

الشعور بالوحدة و الانعزال.هذا التسلسل المنطقي الذي أصبح على حد قوله، ميزة الحياة العصرية، يدفع الفرد الى الشعور بالارتياب البشري و الديني، الشيء الذي يؤدي به الى اليأس و الإحباط و منه الى البحث عن الهروب من خلال المواد المخدرة بكل أنواعها.[1]

أما "ل.غوي" (L.Gouet) في محاولته تفسير ظاهرة تعاطي المخدرات، يذكر أن المجتمعات في العالم بصفة عامة و في الدول النامية بصفة خاصة، عرفت تحولات جذرية بسبب التغير الاجتماعي السريع نتيجة الاتجاهات التنموية الجديدة الاقتصادية و الاجتماعية مما أفرز واقعا جديدا و معطيات جديدة تتمثل في غلق بعض المؤسسات العمومية و منه تسريح عددا كبيرا من العمال من جهة و انتشار البطالة بين الشباب سواء حاملي الشهادات و غير المتعلمين من جهة أخرى. و هذا، في رأيه، كان كافيا لزعزعة الاستقرار بين فئات المجتمع الهشة و فقدان الثقة و زرع التخوف من المستقبل .فالإدمان على المخدرات يبدو على حد قوله، مرهونا بالظروف الاجتماعية و الاقتصادية المزرية التي يعيشها الشباب و أسرهم.[2]

و يمضي"توران" (Touraine) على نفس النهج مشيرا في كتابه "الطريق و النظرة"(La voie et le regard) الى أن مجتمع الكتلة la

[1] Ibid.
[2] Gouet .L , **Adolescent , drogue et Toxicomanie** ,Broche ,Paris ,1992 ,p 83.

(société de masse) في إشارته الى المجتمع الحديث، يولد لدى الأفراد، الشعور بالفراغ بسبب غياب المشروع الواضح مما يثير لديهم الحاجة الماسة لما يسميه : **إحساس وخبرة و مادة** (un sentiment, une expérience, une matière) تتمثل في"حقنة" تعوض العلاقات الاجتماعية المفقودة.[1]

الخاتمة

تشهد الجزائر توسعا ملحوظا لظاهرة تعاطي المخدرات التي عرفت طريقها الى فئة الشباب بصفة خاصة و التي تمثل 70% من السكان تتراوح أعمارهم بين 17 و 30 سنة، غالبيتهم يرزحون تحت ضغوط لا حصر لها، على غرار مشاكل السكن و انعدام مناصب الشغل، ناهيك عن انعدام وسائل الترفيه و العيش المريح و غيرها من المشاكل التي تتسبب في قلق و إحباط من شأنهما أن يؤديا الى انهيارات عصبية خاصة عند الشخصيات الهشة.هذا ما تم الإشارة إليه من طرف الأخصائيين و القائمين على مكافحة الظاهرة في الجزائر.

أما علماء الاجتماع و التحليل النفسي و إن اختلفوا فيما يخص المناهج و المقاربات إلا أن محاولتهم تفسير الأسباب أدت الى نتيجة واحدة و هي الوصول الى معرفة العوامل الرئيسية معرفة علمية .و مما سبق

[1] Touraine .A , **La voie et le regard** ,éd. Seuil Paris ,1978 , P 156.

يمكن أن نجزم أن التحليل النفسي يشير الى أن الظاهرة هي حصيلة تداخل بين عوامل موضوعية و أخرى ذاتية ،تتمثل الأولى في المادة ة و درجة سميتها و طبيعة الوسط السوسيو ثقافي الذي يترعرع فيه الفرد و الثانية تتمثل في شخصية الفرد من حيث درجة الإحباط و الحرمان الذي يتعرض له في المراحل الأولى في حياته.

أما الزاوية التي ينظر منها علماء النفس الاجتماعيون التفاعليون ،الى الإدمان تختلف تماما عن تلك التي ينظر منها علماء الاجتماع الوظيفيون الى هذه الظاهرة الاجتماعية. فبدلا من سعي الوظيفيين الى تحديد أسباب سلوك الإدمان من خلال المميزات الخاصة بالمدمنين أو الوسط الذي يعيشون فيه ،يقوم التفاعليون بدراسة مجموع العلاقات الاجتماعية التي قد تساهم في إنتاج حالة الإدمان على المخدران. و عليه فان ما يهمهم بالدرجة الأولى ليس معرفة لماذا ينحرف بعض الأفراد ولم ينحرف البعض الآخر بقدر ما يهمهم معرفة كيف تصل الجماعات الاجتماعية الى بناء ظاهرة الإدمان من خلال مركب من التفاعلات الاجتماعية .

هذا و يرجع الفردانيون، تعاطي المخدرات الى الحرية المفرطة و الاستقلالية الذاتية التي أصبحت القيم المميزة للمجتمع الحديث و التي

تجعل الفرد منعزلا أمام مسئولياته في غياب الأطر المرجعية التي كانت في السابق تحدد أهدافه و سبل تحقيقها.

قائمة المراجع

1-Becker.H, Etudes de sociologie de la déviance , Metaillé , Paris,1985.
2-Boutefnouchet .M , Introduction à la sociologie , OPU, Alger,2004.
3-Brahim errahmani.A , L'Adolescence entre responsabilité et fatalité , OPU, Alger,2010.
4- Chami.M , Toxicomanie et interventions sociales ,ESF, Paris,1987.
5- De Metais.A , Individualisme , Socio logos , INSA, Lyon.Fr/pph.
6- De Tocqueville. A , De la Démocratie , Gf, Flammarion, Paris,1939.
7-Ehrenberg. A , La Fatigue d'être soi ,Dépression et société , Poches Odile, Paris, 2000.
8-Giroux.C , Aspects physiologiques et pharmacologiques des psychotropes ,Fayard ,Paris 1999.
9-Goffman.E , Stigmate , les usages sociaux des Handicaps ,Ed Minuit, Paris,1975.
10- Gouet.L , Adolescent ,drogue et Toxicomanie ,Broche, Paris ,1992.
11 Olievenstein.C ,Il n'y a pas de drogués heureux ,éd. , Le Livre de poche ,1998.
12- Parsons.T , Eléments pour une sociologie de l'action ,Plon ,Par
13- Saint Martin.A, La sociologie de R.K.Merton, la découverte, Paris, 2014.
14- Tine.B ,Etude sociologique d'une forme de déviance au Sénégal ,Ed Publibook ,2008.
15- Touraine. A ,La voie et le regard ,Ed Seuil ,Paris ,1978.
16- Tremblay.J.M, La sociologie de R.K.Merton, la découverte, Paris, 2014, p 81.

Articles et Journaux

17-Abidat .A ,(Journée de sensibilisation organisée par la DGSN), 2014.
18-Khiati.M ,(La forem tire la sonnette d'alarme) El Moudjahid , le 04/01/2014.
19-M.C , (Journée d'étude sur la lutte contre la drogue et la toxicomanie), Le temps d'Algérie, 2/2/2015
20- ONDT,(Le Phénomène de la drogue), Septembre, 2014.
21- Oukali , (Journée nationale sur la toxicomanie) El Moudjahid , le 01/07/2012